

الكليات الخمس وحاجتها لثقافة الأمن (تطبيق على صلح الحديبية)

الأستاذ: ربيع شمالال

جامعة الجزائر-1-

البريد الإلكتروني: chemlalrabie@gmail.com

Résumé:

L'homme ne peut pas à s'enrichir ou à réaliser ses rêves ainsi qu'a exprimer son talent, aussi il ya un climat de paix et un sentiment de tranquillité, ce qui a rendu à l'Islam son importance et son utilité, spécialement si ; cela concerne les cinq éléments essentiels: la religion- l'argent- la moralité- l'âme- la dignité-.

Le regard qu'a l'Islam pour la paix était profond car son rôle n'était pas seulement de donner des conseils mais c'était d'inculquer et d'initier une culture et des traditions dans la société, et quand les gens n'étaient pas disposés à écouter les conseils des autres aussi la protection de la paix était plus qu'une nécessité, l'Islam a procédé à la mise des lois et l'objectif majeur c'est le respect des droits de l'homme qui n'est autre que les cinq éléments essentiels.

La problématique :

La paix joue un rôle très important dans développement des cinq éléments essentiels; alors quelle est la visée L'islam pour la paix? Et quelle est sa stratégie pour préserver les cinq éléments essentiels?.

Les mots clés:

La paix- cinq éléments essentiels -la justice-la pacification d'elhoudaibia-les objectifs de charia.

مقدمة:

تظهر أمارات اهتمام الإسلام بالأمن في وقت مبكر جدًا من عمر الدعوة المباركة من خلال أحداث أرختها كتب الحديث والمغازي والسيرة، أحداث كثيرة تنضح بهذا الخلق السامي المتسامح الذي يقبل الآخر ويتعايش معه في أمن وسلام.

ففي حادثة شهيرة كانت في السنوات الأولى والإسلام لم تقم له دولة بعد؛ يحدثنا الصحابيُّ الجليل أبو عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه فيقول: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدع لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون¹.

اشتكى الصحابة من اضطهاد قريش، فأجابهم أن ما يدعو إليه سيقود إلى أمن وسلام، ولكن طبع البشر المتكوّن من مزيج بين الاستعجال والنظرة الآنية المحدودة، يعي على الغاية السامية والهدف البعيد.. يقول الشاعر في مثلها:

بصرتْ بالراحة العظمى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
أما بخصوص الأذى الذي لحق المسلمين، فإنّ الإسلام يوازن بين المفسد والمصالح ويحكم لإحدهما وفق قواعد محكمة، فإذا غلب جانب المصالح وشاع اغتفرت المفسدة ولم تعتبر، وفي مثل هذا يقول الشاعر أيضاً:

وفي الموتى لأجيال حياة وفي الأسرى فدى لهم وعق
وفي مواجهاته الأولى صلى الله عليه وسلم مع قريش كان يقول "خلوا بيني وبين الناس"، إنّ هذا العرض الحضاري في بداية الدّعوة الإسلاميّة يبيّن النّيّة الحسنة والنّظرة المثاليّة والطريقة المثلى التي كانت تتحلّى بها هذه الدّعوة، والتي في مجملها ليست سوى وليدة فكر متشبع بالأمن يدعو إليه يبدأ منه وينتهي إليه.

إنّ مثل هذه الأحداث لا يمكن أبداً أن تفهم على أنّها خضعت لمتطلبات المرحلة، أو أنّها مجرد تصرف ارتجالي (ردّ فعل) دان للملابسات، إنّ مثل هذه الأحداث لا يمكن أن تفهم إلا أنّها شرح واضح لتصور إسلامي شامل لمفهوم الأمن وأهميته، شرّح يفهم منه أنّ نظرة الإسلام للأمن كانت دائماً وأبداً تميل إلى اعتباره ثقافة ومنهج حياة، على المسلم أن يمارسه ابتداءً بالتحية وتأمين الجار وانتهاءً بمفهومه العام في استمرار الدولة والحفاظ على ممتلكاتها.

فكيف إذا علمت أنّ الله عز وجلّ قد أنزل شرائعه وجعل الغاية العامة منها جلب مصالح العباد ودفع المفاسد عنهم، ومن أعظم هذه المصالح الأمن، ومن أعظم المفاسد ما كان ضدّ الأمن، "لقد شرع الله عز وجلّ الشرائع ليعيش النَّاس في ظلالها بسعادة وصلاح في دنياهم وأخراهم، وقد شرعت الشرائع لحكم إلهية ومقاصد ربّانية، وإنّ الباحث في كليات الأحكام وجزئياتها، وعموم النصوص وخصوصها، ليجد أنّ الشريعة الإسلامية شرعت لحكم ومقاصد كثيرة منها الأصلية ومنها التبعية، ومنها العامة ومنها الخاصّة، ومنها ما هو مرتبط بجلب المصالح ومنها ما هو مرتبط بدفع المفاسد، إلى غير ذلك من الحكم والغايات"².

هذا التصرّو الكامل الشامل للأمن وأهميته؛ يجعلنا نجزم أنّ الإسلام اعتبره ضرورة وكيّة ومقصدا عامّا في التعامل مع المعاملات وقضايا النَّاس عموما، وهو ما شديني إلى اختيار موضوع : الكليات الخمس وحاجتها لثقافة الأمن (تطبيق على صلح الحديبية)

والذي سأتناوله من خلال ثلاث نقاط، وهي:

. الكليات الخمس وحاجتها لثقافة الأمن.

. التأسيس لثقافة الأمن من خلال مقصد العدل والمساواة.

. تطبيق على صلح الحديبية.

المطلب الأوّل: الكليات الخمس وحاجتها لثقافة الأمن.

يعيش الإنسان وغاية ما يتمناه . مهما كان الهدف الذي تصوّره من الحياة . أن يجد الاطمئنان النَّفسيّ والأمن ليسهل عليه ممارسة الحياة ممارسة طبيعيّة بعيدة عن الاضطرابات والاهتزازات، وهذا ما يوفّر له جوّا مناسباً لإظهار قدراته وتنمية مواهبه والوصول إلى احتياجاته.

يطمح إلى ذلك وهو يدرك كلّ الإدراك أنّه لا يصلح إليه إلا إذا أحسنّ بالأمن في خمس: المعتقد، والنفس، والعقل والعرض والمال، وهي بالضبط: النتيجة التي توصّل إليها علماء الإسلام عند استقراء مقاصد الإسلام الضرورية من خلال نصوص الوحي.

إنّ الإسلام أراد من خلال تشريعاته أن يحيط هذه الكليات الخمس بالأمن التّام، بل حفظ حتى الوسائل المساهمة في تأمينها.

قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: "مقصود الشرع من الخلق خمسة وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، وكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة. وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة"³.

وقال الشاطبي: "فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود، كالإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبه ذلك، والعبادات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل أيضاً، لكن بواسطة العادات والجنايات، ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترجع إلى حفظ الجميع من جانب عدم"⁴.

ولقد اعتنى بها واحدة واحدة، وخصّ كلّ واحدة منها بمجموعة من الأحكام والوصايا والتشريعات التي تساهم في الحفاظ عليها على أكمل وجه، ورتّب مجموعة من العقوبات لمن تعدى عليها ولم يرقب حرمتها، فكان حفظه لها من جانبين:

أ. من جانب الحفاظ على ما يضمن استمرارها ونموّها.

ب. من جانب دفع كلّ ما قد يكون سبباً في زوالها أو نقصانها.

قال الشاطبي رحمه الله: "والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب عدم.

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود كالإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبه ذلك، والعبادات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل أيضاً لكن بواسطة العادات.

والجنايات ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترجع إلى حفظ الجميع من جانب عدم"⁵.

هذا الوعي الكامل بأهمية هذه الضرورات ووجوب حفظها وعدم الخوف عليها في المجتمع، يحقق للإنسان راحة نفسية كاملة، ينجم عنها تفكير سليم وسعي سديد، ومثل هذا الاهتمام من الإسلام بها يؤسّس حقاً لذهنية حضارية تكون من

خصائص الشخصية المسلمة، ويكون لها التأثير الإيجابي الذي يؤدي بكل أفراد المجتمع إلى أن يعيشوا الأمن كثقافة.. حتى يصير الأمن في الأخير عنوان ذلك المجتمع المسلم.

هذا في العموم، وإليك تفصيل ذلك :

1. حفظ الدين: يضمن الدين أمنا شاملا من خلال كون الإنسان المتمسك بتعاليم الدين عقيدة وخلقاً وشريعة إنساناً متكاملًا يعرف قدر نفسه كما يعرف حقوق الآخرين ويحفظها، فإذا كان المجتمع مزيجاً من هذا النموذج الواعي المتشبع بمفاهيم الإسلام، سيكون مفهوم الأمن عند جميع أفراد ومكوناته حتمية؛ لأن كل فرد منه يملك وعياً بأن أيّ مساس به ستصيب تبعاته المجموعة كلها دون استثناء.

خذ جهة العقائد فإن الدين يوجد أمناً نفسياً من خلال تفسيره لأمر ظلت تقلق عقل ونفس الإنسان منذ القدم، وقد عجز هذا الأخير. رغم محاولاته المتكررة. عن تفسيرها، ليحيى الإسلام بشرحه الذي امتاز بصفتين: البساطة. ومخاطبة العقل والفترة معا، وهذا ما أكسبه قوة مذهلة، وجعله التفسير الصحيح المنطقي الوحيد. ومن جهة العبادات فإن الدين يوجد ذلك الإنسان المنضبط المسئول، لأن مسألة توطئ النفس على خمس صلوات في اليوم تشغل الإنسان وتجعل وقته مملوءاً، وتطهر قلبه من الضغائن، ومسألة توطئ النفس على صيام شهر كامل يجعل الإنسان يشعر بغيره من الفقراء وأصحاب العاهات الذين منعوا من طيب الملمات، فلا يستبد ولا يستعبد، ومسألة بذل المال في الزكاة يجعله أبعد من أن يمدّ يده إلى مال ليس له فيه حق.. وهكذا.

ومن جهة أخرى فإن العبادات عادة ما تؤدي جماعية ويكون فيها احتكاك وتفاعل بين الأفراد، ومثل هذا كفيل بصنع نموذج بشري لم يشهده العالم مطلقاً، لأنه يوجد فرداً مدنياً يتعايش ويألف ويؤلف، هذا بالإضافة إلى كون الإسلام اهتم بالسرائر أياً ما اهتمام، وخاطب الضمائر، وقلد أحكاماً على النيات وهي من أمور القلوب التي لا يطلع عليها الناس، وهذا ما يجعل من يعيش في مجتمع الإسلام يخضع نفسه لرقابة الوازع الشرعي، فهو يراقب الله حتى في خلواته.

ألا تتفق معي أنّ هذه الأفكار مجموعة بعضها إلى بعض تكوّن مجتمعا يحكم نفسه ويحرس حقوقه، ولا يكون دور السلطة فيه . من جانب تحقيق الأمن . إلا دورا ثانويا تنظيميا بالدرجة الأولى والأخيرة.

وكخلاصة لما تقدّم نقول: "إنّ الدين يمنع المؤمن من البحث عن المبررات والحيل لإسقاط الحقوق.. فإذا فُقد الدّين دخل الفساد على هذه المقاصد، فترى نفوس تغتال، والأموال تختلس، والأعراض تنتهك، ولا يمكن في هذه الحالة أن يقال: إنّ هذه المقاصد محفوظة"⁶.

لذلك كان "حفظ الدّين أهمّ مقاصد الشريعة الإسلامية، ولا يمكن أن يكون هذا المقصد العظيم معرضا للضياع، والتحريف والتبديل، لأنّ في ذلك ضياعا للمقاصد الأخرى، وخرابا للعالم بأسرها، ولك أن تتصوّر حال أمة ليس لها سلطان، وليس عليها رقيب كيف يتسلّط فيها القويّ على الضعيف، والغنيّ على الفقير، وقد شبّه الله حال الذين فقدوا الدّين الحقّ فلم يستنبروا بنوره ويستبصروا ببصيرته، بالأموات الذين فقدوا الإحساس والعقل والتمييز والذين لا يرجى منهم نفع فهم لا يسمعون"⁷.

2. حفظ النّفس والعقل والمال والعرض:

من نعم الله العظيمة أن خلق الإنسان في أحسن تقويم وكرّمه، وخلق له كلّ ما يسهّل له حياته وجعل له الكون وما حوى سخرى، فأعطاه حقّ الحياة، وحرّم كلّ شيء يتسبب في إيقاف حياته دون حقّ، ولو كان هو نفسه المتسبّب، قال تعالى: "ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيما(29) ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا(30)"[النساء: 30/29].

وميّزه بالعقل، وهو ضروريّ ليفهم الإنسان معنى أن يعيش في مدينة وعمران، وأن يعرف كنه الحقوق والحريات، وضرورة التحكّم في سلطة الشهوات وطغيان الرغبات، وليفهم أن لا سبيل للحصول على ما في يد غيره إلا بطرق مشروعة تدور كلّها على رضا الغير. قال الدكتور محمد اليوبي: "وتغطية العقل تؤدّي إلى فساد تصرف الإنسان، وطمس بصيرته وخروج أفعاله عن المألوف وكلامه عن المعروف، فيصبح عرضة للشامتين وهزأة للهازين"⁸.

وحفظ له العرض والنّسل، وهما ضروريان لتستمرّ الحياة وتسلم الأنساب، ولو ترك الأمر على حاله لاختلطت الأنساب، وهذا أمر يؤدي إلى تآكل العنصر البشريّ وزواله.

ثم حفظ له المال لأنّه من "الضرورات التي لا تستقيم مصالح الدّنيا إلاّ بها..فهو عصب الحياة وبه قيام مصالحها..والحاجة إلى المال ماسّة في حقّ الفرد والجماعة أو الأُمّة، خصوصاً إذا علمنا أنّ المقصود من المال كلّ ما يتموّل به الإنسان من متاع أو نقد أو غيره، وليس هو خاصّاً بالنّقدين كما قد يتبادر إلى أذهان البعض"⁹.

فإذا افتقد الإنسان المال الذي به يحصل على حاجته تحرّكت فطرته الطاغية (الحسد والأنانية) وانتصبت نفسه الأمّارة بالسوء فهوّنت عليه التّعدي على أموال النّاس، والطرف الثاني المعتدى عليه لن يسكت، ولن يخضع لسلطة المعتدي مهما بلغت، وهنا يحدث الاصطدام، وتكون المشاحة فيحصل شرّ كبير، ويزول الأمن ويتضرّر النّاس جميعاً.

وهكذا جاء الإسلام ليعلمنا أنّ حفظ هذه الأمور خادم للأمن وجالب له، لأنّها الأصل وكلّ أمور الدّنيا الأخرى ترجع إليها، وتكون تابعة لها.

- ولقد حفظها الإسلام من خلال تشريعات كثيرة منها:
 - . سدّ الذرائع المؤدية إلى القتل وإباحة المحظورات حال الضرورات.
 - . تحريم أكل مال المسلم عن غير حق.
 - . وتحريم الخمر وما كان له مثل ضرره.
 - . وسنّ البيوع والزواج.
- ورتّب عقوبات للحفاظ عليها منها:
 - . القصاص والحراية.
 - . وقطع اليد.
 - . وحدّ القذف وشرب الخمر...

المطلب الثاني: التأسيس لثقافة الأمن من خلال مقصد العدل والمساواة:

(العدل والمساواة) مقصد عام من مقاصد الشريعة الإسلاميّة، دلّت عليه آيات وأحاديث كثيرة، ولا غرابة في ذلك فهو عند العقلاء رأس الأمن وسنامه، إذ إنّ المجتمع المفتقر للعدل لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه؛ لاعتبار أنّه لا يجد من يردّ له حقه المهضوم، قال الدكتور أحمد الرسيوني: "إقامة القسط أو القيام بالقسط هو مقصد كبير.. من مقاصد بعث الرّسل وإنزال الكتب، ووضع الشرائع، ولقد كان

من الممكن الاكتفاء باعتباره مندرجا في المقصد الكليّ الشامل: (جلب المصالح ودرء المفاسد) ولكيّ أفردته وخصّصته بالذكر لسببين:

الأول: هو أنّ القرآن الكريم جعله مقصدا عاما لبعث الرّسل كافّة، واعتنى به بشكل متميّز لافلت للانتباه، فصار من القسط تخصيص فقرة خاصّة بالقسط.

الثاني: وهو تابع للأول، وهو أهميّة القسط ومدى سعته وتشعبه.

قال الله تعالى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [الحديد:25]
لقد قرّرت الآية أنّ:

. إرسال الرّسل جميعا

. والبيّنات التي أوتوها

. والكتب التي بعثوا بها

. والميزان التي فيها ومعها

كلّ هاذ لأجل مقصد واحد، هو أن يقوم النّاس بالقسط، ومعنى هذا أنّ كلّ ما جاء به الرّسل، مهما تعدّدت أسماؤه ومسمّياته، إنّما هو القسط، لأنّ هذه الآية جمعت كلّ مقاصدهم وأسباب بعثهم في شيء واحد هو القيام بالقسط.

وفي شأن المنازعات والصّراعات التي قد تنشأ بين المؤمنين جعل الله العدل والقسط أساسا ومرجعا وسبيلا للخروج منها، قال تعالى: "وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَاثِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" [سورة الحجرات: 09]¹⁰.

مساهمة العدل في جعل الأمن ثقافة: ومن الأمور التي يجب أن ينتبه لها الإنسان جيّدا، أنّ الإسلام لم يعتبر العدل قضية ثانويّة لها دور ثانويّ في خدمة مصالح العباد، بل جعلها مقصدا عاما كما ذكرنا، وجعل أمر الدنيا والآخرة يقوم عليها، فالظلم ظلمات في الدنيا، ويوم القيامة ينادي الله في خلقه "لا ظلم اليوم" [غافر:17].

"وحقيقة العدل في الإسلام، أنه ميزان الله على الأرض، به يُؤخَذُ للضعيف حَقُّه، ويُنصَفُ المظلومُ ممن ظلمه، ويُمكنُ صاحب الحقِّ من الوصول إلى حَقِّه من أقرب

الطرق وأيسرها، وهو واحد من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام في مجتمعه؛ فلجميع الناس في مجتمع الإسلام حَقُّ العدالة وحَقُّ الاطمئنان إليها¹¹.

في المجتمع المسلم يؤخذ للضعيف بحقه على مستويات: المستوى الأول: أن يراجع الظالم نفسه عند سماع آية أو حديث أو موعظة، أو على مستوى المناصحة التي ستأتي من إخوانه الذين سمعوا بالحادثة، فإذا لم يستجب فإنَّ النظام الإسلامي الذي أرساه الوحي سيأخذ له بحقه لا محالة.

ولعلَّ أحدًا يتصوّر العدل في الخصومات والنزاعات فقط، كلا بل جعل الله العدل قضية عظمى يعيش بها الإنسان حياته كلّها، فيعدل مع نفسه؛ فلا ينقطع عن الدنيا وفي المقابل لا يغمس فيها، بل يكون وسطا ويوغل في الدين والحياة برفق؛ يصلي وينام ويصوم ويفطرو ويتزوّج النساء ويأخذ نصيبه من الدنيا كما يجتهد للفوز في الآخرة، وهذا تطبيق عملي للعدل.

ويعدل في الأكل والشرب، فلا هو يجوّع نفسه حتى يهلك، ولا هو يأكل حتى يملأ بطنه داء، ويعدل مع زوجاته إن كان له أكثر من زوجة، ويعدل بين أولاده في العطايا.. وهكذا حتى يصبح العدل ثقافة وعادة يجري بها طبيعه.

فإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ من الوعي . وهو الذي أراده منه الإسلام . سوف لن يجد حرجا بالتأكيد في العدل مع غيره، وهذا غاية ما يطلبه الإنسان العادل الذي يبحث عن الأمن.

ثمّ يستمرّ الإسلام في تنمية هذا الحسّ عند المسلم فيدعوه إلى أمر قد يتصوّره بعض الناس مضادا لطبيعة الإنسان، ولكنه . عند العقلاء . الدليل الأكبر على اهتمام الإسلام بالأمن من كلّ جوانبه، والنتيجة الحتمية التي سيجد المسلم نفسه مسيرا نحوها بعدما يعيش الأمن في كلّ شؤونه، يستمرّ الإسلام ليدعونا هذه المرة للعدل حتى مع أعدائنا وأعدائه، فيقول تعالى في آية هي قاعدة من قواعد الإسلام العظيمة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"

[المائدة:08]

ويغضب النبي صلى الله عليه وسلم وكان لا يغضب لحظ نفسه ولا يغضب إلا لعظيم، والسبب عرض من صحابي جليل فيه إخلال بهذا الأصل؛ فعن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله؟ فقالوا:

ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ، فكلمه أسامة فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟"

ثم قام فخطب، ثم قال: إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"¹².

قال الشيخ رشيد رضا في أثناء تفسيره للآية السابقة: "والشهادة بالقسط معروفة، وهي أن تكون بالعدل بدون محاباة مشهود له ولا مشهود عليه؛ لا لقربته وولائه، ولا لماله وجاهه، ولا لفقره ومسكنته. فالشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم؛ ليحكم به، أو إظهاره هو إياه بالحكم به، أو الإقرار به لصاحبه. و (القسط): هو ميزان الحقوق، متى وقعت فيه المحاباة والجور - لأي سبب أو علة من العلل - زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفسد وضروب العدوان بينهم، وتقطعت روابطهم الاجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدا، فلا يلبثون أن يسלט الله تعالى عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل والشهادة بالقسط منهم، فيزيلون استقلالهم، ويذيقونهم وبالهم، وتلك سنة الله التي شهدها في الأمم الحاضرة، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة"¹³.

إنَّ حفظ الكليات الخمس التي هي من ضروريات الحياة، لن تسلم، ولن يكون الإنسان في راحة تامة من ناحيتها، إلا إذا علم أنّ أيّ نزاع وقع حولها واضطره إلى التحاكم، سيكون مآله الجلوس أمام حاكم لا يحابي في الحقّ أحدا، ولو كانت عقائد الحاكم تتعارض مع عقائده، ولو كانت أيضا تتوافق مع عقائد خصمه.

المطلب الثالث: تطبيق على صلح الحديبية: صلح الحديبية كان بمثابة الدليل الساطع والبرهان القاطع على أنّ الإسلام دين يجنح للسلم متى دعي إليه، وأنّه دين يراعي المصالح وفقّة الأولويات فيها، ويدفع بالتي هي أحسن إلا إذا اضطرّ إلى غيرها.. و إلا كيف نفسّر مسارعة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى عقد هذه المعاهدة رغم مراجعة كبار صحابته وخواصّ وزرائه له، ورغم كون جيشه الأقوى وجيش عدوّه الأضعف.

"عقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز قوّة لا ضعف، وكان باستطاعتهم أن لا يقبلوا شروطها التي اغتاط منها كثير من الصّحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي لا ينطق عن الهوى،

وقد تمادى رسول قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مفاوضته، وكان فردا بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى ولم يتماد عليه المسلمون بالقتل (لأنَّ السِّفراء لا تقتل)، ولكنَّ رسول الله يرضيه ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي حقن الدماء وإحلال السَّلام، ورجاء أن يعقل القوم الحقَّ، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله، وتدخل الدعوة الإسلاميَّة طورا جديدا بصور أخرى في الانتشار والاتصال بالنَّاس¹⁴.

إنَّ مظاهر حب الأمن والسَّلام والتطلع إلى مجتمع آمن، تظهر جليَّة في كلِّ خطوة خطاها النَّبي صلى الله عليه وسلم في عقده هذه المعاهدة المباركة، التي كانت فتحا عظيما على المسلمين، وكانت أمنا وسببا لإيجاد وتكوين مجتمع إسلامي . بل بشريّ . آمن.

ومن هذه المظاهر:

1. أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم انطلق من المدينة وهو يُظهر من حاله وحال أصحابه أنَّه مسالم لا يريد حربا، وكان القصد بلاد العدوِّ التي قاتله أهلها، والأصل في هذه الحال أن يكون الإنسان في حيطة تامة، ولكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عكس القاعدة فردَّها إلى أصلها، وهاهو يقصد أرض عدوِّه وهو متخفِّف من السَّلاح، إنَّ من يفعل هذا يملك حقا نيَّة صادقة وشجاعة أُمْنِيَّة في لَمَّ الشمل وتجاوز الخلافات وبدء حياة جديدة تكون فيها الغلبة للحجة التي توافق الفطر السليمة وتخاطب العقول الرَّاجحة.
2. أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أجابهم إلى مطلبهم وهم أهل كفر وفجور، فكيف كان يكون الحال لو كانوا أهل تقوى وصلاح، قال الدكتور علي الصلابي: "ومن الفوائد أنَّ المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمرا يعظمون فيه حرمة من حرّمت الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرّمت الله تعالى لا على كفرهم وبغيمهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكلَّ من التمس الإعانة على محبوب لله تعالى مُرضٍ له، أُجيب إلى ذلك كائنا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبعوض لله أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضيع وأصعبها، وأشقَّها على النفوس"¹⁵. نعم هو من أصعب المواضيع وأشقَّها على النَّفوس لو كان الناس فيها يدعون إلى أنفسهم، ويكافحون من أجل مصالحهم، ولكنَّ الإسلام يدعوهم إلى إخلاص

العمل لله، وأن يجعلوا المقصود من كلّ عمل تحقيقَ مصالح الإسلام التي تقدّم المصالح العامة على الخاصة، فأهل الإسلام أرحم النَّاسِ بالنَّاسِ.

3. الكلّ كان يعلم أنّ جيش المسلمين قادر على فتح مكة ودكّ حصون المشركين، فما بال النَّبيّ صلى الله عليه وسلّم يُفهم قريشا أنّه لا يريد حرباً؟ ولا يريد انتزاع أرضهم منهم؟، وإنّما غايته العمرة وزيارة بيت الله الحرام، وما باله يقبل مفاوضاتهم الواحد تلو الآخر؟.

إنّما قيم إسلاميّة خالدة جعلته يقبل كلّ ذلك منهم، ويتنازل عن مصالح صغرى مقابل مصالح كبرى أبصرها بفقهه صلى الله عليه وسلم وأنباه بها الوحي، قيم إسلامية كلّها تصبو إلى إقامة دولة آمنة.

4. إنّ من الأصول العقدية عند المسلمين الولاء والبراء، فلماذا يُلين النَّبيّ صلى الله عليه وسلم لهم الجانب، ويلطّف الحديث، أليس المراد إشعار الخصم بالقيم الإسلامية العادلة التي تنشر الأمن وتحقّقه.

"يؤخذ من جواب رسول الله صلى الله عليه وسلّم لبديل بن ورقاء حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً، لأنّ النَّبيّ أجاب المشركين لما طلبوا، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكرهية فيهم، لطفاً منه صلى الله عليه وسلّم، فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج من أجلها"¹⁶، فلم يكن شيء ليصرفه عن هدفه، ولا عن مقصده، ولم يكن شيء ليجرّه إلى عكس ما أوحى الله به من تأمين النَّاسِ، إلا أمراً جرّه الآخر وابتدأه الخصم.

5. ثمّ انظر إلى بنود المعاهدة وما فيها من إجحاف؛ حيث يثبت المفاوضات ما يشاء ويمحو ما يشاء... وأنّ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه إليهم، ومن جاء قريشا ممن عند محمد لم يردوه عليه... وأن ترجع عنّا عامك هذا ولا عمرة في هذا العام...

كلّ هذا والنَّبيّ صلى الله عليه وسلّم يجيهم إلى ما أرادوا، ولم يشر إلى السيف وإن أشار إليه أصحابه، إنّهم يعلم أنّ مجتمعا آمناً لكفيل بأن تنتشر فيه الدّعوة. وانظر إلى صناديد قريش كيف خشعت قلوبها للإسلام بعد الهدنة مباشرة، لقد "أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف النَّاسِ به، ممّا أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهريّ: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم

منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة , ووضعت الحرب , وأمن الناس بعضهم بعضا , والتقوا , فتفاوضوا في الحديث والمنازعة , ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر".¹⁷

6. أما الأمن الذي كان يشعر به أصحابه في الإسلام فهو أمن لا يشابهه أمن، انظر إلى مراجعتهم لرئيسهم وإلحاحهم في ذلك، ولم لم يشعروا بالأمن لما فعلوا، ولو لم يعيشوا الأمن في دولته خُلُقًا وعادة لما تجرؤوا.

الخاتمة:

لا يشك عاقل قرأ الإسلام أو قرأ عنه من مصادر تتبنى العدل؛ أن الإسلام أمن كله؛ أمن نفسي واجتماعي وغذائي وسياسي... وأن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الأمثل لتنمية المواهب وتحقيق الأهداف، لأنه يوفر الظروف الملائمة لما يتوقّر عليه من أمن وسلام واحترام للحقوق. ولذلك أدلة منها:

. أن الله اختار لهذا الدين الخاتم أن يحمل اسم الإسلام، وهو اسم يحمل في حروفه ومعناه السلم والأمان ويصدرها للمسلمين خاصّة، وللبشريّة عامّة، وهذا ما شهد به كلّ من عاش في أرض الإسلام من أهل الديانات الأخرى. أنّ التحية عند أهله هي: السلام، فالمسلم حين يفشيها، من خلال المبالغة في التسليم على من يعرف ومن لا يعرف، يتشبع هويها وبمتطلباتها، ويكون السامع لها كذلك ملزما بردّ مثلها أو خير منها، فيأخذ بحظ من الأمن والطمأنينة التي تكسيها هذه التحية.

. أنّ أوّل آية نزلت اقرا، والقراءة والعلم يجعلان الإنسان متفتّحا، يفهم الآخر ويتقبّله، ويتعايش معه، والقراءة والعلم يدفعان الإنسان إلى الاكتشاف والتطلع إلى الأحسن، ولا يحصل مثل هذا إلا بالعلاقات الإنسانية بين الشعوب، والمبنية أساسا على احترام الحقوق.

ولقد حاولت في مداخلي هذه أن أستنطق مقاصد هذا الدين وأهدافه فوجدتها كلّها تنطق أمنا وسلاما، وخرجت بمجموعة من النقاط هي:

. أنّ الإسلام كان رحمة للعالمين، لذلك اهتم بمصالحهم وخدمها، وحارب المفسد التي قد تتسبب في زوال مصالحهم أو تأخيرها.

. أن الإسلام حصر مصالح العباد الضرورية في خمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، فإذا أمن الإنسان عليها استطاع أن يعيش حياة هانئة. ثم سعى من خلال تشريعاته إلى خدمتها وحفظها.

. أن هذا الأمن المنشود لا تتحقق الغاية منه إلا بإيجاده كثقافة وعادة عند التركيبة التي يتكوّن منها المجتمع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: وجود منظومة قضائية تحكم وتحقق العدالة والمساواة، حتى إذا تعرض حق من الحقوق إلى المساس لم نجد أنفسنا في دوامة تحكمها قوانين الغاب.

. أن هذا لم يكن مجرد تنظير فقط، بل عاشه الصحابة واقعا، فكانوا يتمتعون بالأمن في أنفسهم ويجدونهم عند كل من يقابلونه في المجتمع الإسلامي، فإذا تطوّر الأمر إلى نزاعات وصراعات ورفع إلى القاضي، لم يخف أحد الخصمين الضيم أو الإجحاف.

. من أحسن الشواهد على ذلك ما شهدنا من روائع القيم والأخلاق والوعي في صلح الحديبية.

اقتراحات:

وإنّي وأنا أكتب هذا المقال وأعيش بين نصوص الشرع التنظيرية، والتطبيقات النموذجية من جيل الصحابة الكرام، مرت بذهني بعض الاقتراحات فأحببت تسجيلها؛ وهي:

. أن يهتم المجتمع المسلم بكل مؤسساته: تربوية ودينية وتضامنية واقتصادية وأمنية؛ أن يهتموا كلهم بتنمية ثقافة الأمن عند المنتسبين إلى مؤسساتهم، من خلال آليات منها: التحية وحسن المعاملة والتآخي والتضامن..

. أن يتفرغ كوكبة من الباحثين لكتابة مجموعة من القصص والكتب التعريفية بأهمية الأمن للأطفال خاصة، لأنهم الشريحة الأهم، باعتبار أنهم معرضون لتقبل أي فكر متطرف، فمثل هذه الكتب والقصص تجعلهم يستشعرون الأمن كضرورة، وهذا ما يجعلهم يتدربون على آلياته، حتى إذا كبروا عليه صعب انتزاعه منهم. هذا وأخردعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1. رواه البخاري رقم: 3612. كتاب: المناقب. باب: علامات النبوة في الإسلام.

2. فقه الأولويات في ظلال مقاصد الشريعة الإسلامية [ص:06]. د. عيادة علي الكربولي. دار طيبة.
3. المستصفى من علم الأصول [1/174]. أبو حامد الغزالي. تح: محمد عبد السلام عبد الشافي. دار الكتب العلمية. بيروت.
4. الموافقات في أصول لفقه [08/2]. للإمام إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي. تح: عبد الله دراز. دار المعرفة. بيروت.
5. الموافقات [08/2].
6. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية. د. محمد سعيد اليوبي [ص:210]. ط:01. دار الهجرة الرياض.
7. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية [ص:193].
8. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية [ص:239].
9. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية [ص:273].
10. الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية للدكتور أحمد الريسوني. [ص:100/101]. دار الأمان. الرباط. ط:01 [1431-2010].
11. من مقال بعنوان: العدل في الإسلام أهميته حقيقته. من موقع الدكتور راغب السرجاني
12. رواه البخاري. رقم: 6406. كتاب الحدود. باب كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان.
13. تفسير المنار [06/273]. محمد رشيد رضا. دار المنار. مصر.
14. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث [ص:676]. للدكتور علي محمد الصلابي. دار المعرفة. بيروت.
15. السيرة النبوية لعلي صلابي [ص:662].
16. السيرة النبوية لعلي صلابي [ص:663].
17. السيرة النبوية لعلي صلابي [ص:684].